14 me Année No. 684

Lundi—13—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٤ رمضان سنة ١٣٦٥ — ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

النقد عنـــد العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٣ —

أما الأسباب التى دفعتهم إلى سلوك هذا النهج فى نقد الشعر، فمن السهل تلخيصها فى خمسة أمور لا يصعب عليك استنتاجها مما تقدم:

الأمر الأول ما ذكرناه من أن علماء اللغة والنحو لم يروا الفضل فى الشعر إلا فيما يمكن الاحتجاج به، وحسبهم من ذلك البيت والبيتان.

الأمر الثانى — وهو من قبيل الأول — أن علماء البيان والبديع، ومنهم أكثر النقاد، كانوا يكتفون بالشطر أو البيت أو البيتين شاهداً على صورة من صور البيان، أو نوع من أنواع البديع.

الأمر الثالث أن القصيدة العربية بطبيعتها مجموعة من مقطوعات تتفق فى الوزن والقافية، وتختلف فى المعنى والغرض. فإذا أخرجت مقطوعة ما من قصيدة وأدخلتها فى أخرى تكون من بحرها ورويها لا تحس نقصاً فى الأولى ولا كمالا فى الأخرى.

الأمر الرابع أن الشعراء ألزموا أنفسهم أن يكون كل بيت من أبيات القصيدة مستقلا بمعناه عن غيره، وجعلوا من عيوب الشعر (التضمين) وهو أن تتعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقل بالإفادة. وربما مدحوا الاستقلال بين شطرى البيت؛ فقد روى الجاحظ فى البيان عن عمرو بن العلاء أن ثلاثة من الرواة اجتمعوا فقال لهم قائل: أى نصف بيت شعر أحكم وأوجز؟ فقال أحدهم: قول حميد بن ثور: وحسبك داء أن تصح وتسلما. وقال الثانى: بل قول أبى خراش الهذلى:

تو كل بالأدنى وإن جلّ ما يمضى.

وقال الثالث: بل قول أبى ذؤيب: وإذا تُرَدّ إلى قليل تقنع. فقالوا إنه لا يستغنى بنفسه، لأن السامع لا يفهم معناه حتى يسمع النصف الأول، والصواب أن يقال قوله:

والدهر ليس بمعتب من يجزع

وكان من أثر استقلال البيت بمعناه أن كثر التقديم والتأخير فى أبيات القصيدة حتى لا تجد قصيدة جاهلية يتفق راويان على ترتيب أبياتها.

والأمر الخامس أن الغلبة كانت للرأى القائل بأن الشعر إنما يكون أثره وبلاغه بما فيه من تغيير الأوضاع وصور المجاز وأنواع البديع، حتى أن ابن رشد الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ قال فى تلخيص كتاب الشعر لأرسطاطاليس ما نصه: « والقول (الشعرى) إنما يكون مختلفاً أى معبّراً عن القول الحقيقى من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة فى الموازنة والمقدار، وبالأسماء الغريبة، وبغير ذلك من أنواع التغيير. وقد يستدل على أن القول الشعرى هو المغير أنه إذا غير القول الحقيقى سمى شعراً أو قولا شعريا ووجد له فعل الشعر. مثال ذلك قول القائل:

ولما قضينا من مِنى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنما صار شعراً لأنه استعمل : أخذنا بأطراف الأحاديث الخ . بدل قوله تحدثنا ومشينا .

وكذلك قوله : بعيدة مهْوى القُرط ، إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله : طويلة العنق . وكذلك قول الآخر:

يادارُ أين ظباؤك الأُنس قد كان لى فى إنسها أُنس

إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها ، وأبدل لفظ النساء بالظباء ، وأتى بموافقة الإنس والأنس فى اللفظ . وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال . وما عدا هذه التغيرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط ، والتغيرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه وبالجملة بإخراج القول غير مخرج العادة ، مثل القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ، ومن السلب إلى الإيجاب ، وبالجملة من المقابل إلى المقابل » .

وما دام الشعر مبنياً على هذه الصور والأشكال ، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع ، وذلك يقتضى النظر فى بعض الأبيات وفى بعض أنواع الكلام .

* * *

لهذه الأمور الخمسة انحصر النقد البيانى عند العرب فى جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الفرنج ، وضاقت علوم البلاغة عندهم هذا الضيق الفاحش ، فلم تعالج غير أبيات وفقر من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفلت القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتاب باعتباره كلا لا يتجزأ ، ولم تحفل ما ألف بالنثر المرسل من الكتب والقصص . وجر ذلك إلى أن الشعراء والكتاب أوغلوا فى البديع وتفننوا فى الزخرف ، وأهملوا فن القصص فتركوه لأدباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ومحك القدرة ، فحرموا بذلك الأدب العربى فناً كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتنان فيه .

ومن ذلك يتضح أن فهم الأقدمين للحاطىء لحقيقة الفن الشعرى والكتابى جر إلى حصر النقد البيانى فى الصور والأشكال ، وهذا الحصر نفسه قد وجه الشعراء والكتاب إلى الاحتفال باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات أكثرهم أن روعة الكلام لا تكون بالرونق والأناقة والصنعة وحدها ، وإنما تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضمائر وتحسه المشاعر ، وبدقة التصوير لمختلف الطبائع والعواطف والأخلاق والشهوات والصفات حتى ترى صور أصحابها الحقيقيين أو المتخيَّلين تتحرك وتفعل وتقول على مقتضى الغرائز الثابتة والفطر الأصيلة ؛ وبكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة تجرى على لسانه ، أو حركة تحدث عن يده ، فتكون تلك الكلمة أو الحركة كومضة البرق فى الظلام تنير الأفق بغتة ؛ وببراعة الوصف لمناظر الطبيعة وظواهر الكون حتى تحس فيها الحياة والحركة وندرك ما بينها وبين النفس وانفعالاتها من اتصال وعلاقة ؛ وبشدة التأثير فى الأفئدة حتى تستيقظ فيها رواقد الأهواء والعواطف ، فتطرب النفس أو تغضب ، وتفرح أو تحزن ، وترضى أو تسخط ، وتحب أو تبغض .

ولو أن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا أو نبهوا إلى ذلك لكان من همّ الناقد أن ينظر فوق ماينظر فى الألفاظ والصور إلى تنسيق المعانى وترتيب الأفكار فى جملة القصيدة أو الخطبة أو المقالة أو القصة ، أو الكلام على العموم سواء أكان شعراً أم كان نثراً ؛ لأن سلامة الجزء المنفصل ، أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة .

كذلك كان ينبغى للناقد أن ينظر فى الموضوع الذى عالجه الفنان ليرى أبلغ القصد فيما صور ، وأصاب الشاكلة فيما رأى ، وقارب الحقيقة فيما تخيل . وهل استطاع أن يبعث الحياة الطبيعية الحقيقية فى الأشخاص الذين توهمهم ورسمهم . وهل قدر على أن يحرك فى قلوبنا أهواء ساكنة ، وينشىء فى نفوسنا عواطف جديدة ، بما أوحاه أو استدعاه أو رواه من الأمانى والذكريات والحوادث ؟

كذلك كان من عمل الناقد البيانى أن يحلل ما ينشأ فى نفس القارىء لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكاتب أو الشاعر أن ينشىء هذه العواطف أو يوحيها . ومن ثمّ كانت المقالات النقدية عند الفرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبوىء أصحابه مقاعد النبوغ والخلود .

وإذا تدبرت وظيفة الناقد من بعض ما ذكرته تبينت تلك العلاقة بين النقد وعلم النفس ، فإن موضوعه تحليل الأحاسيس والعواطف ، والبحث عن طبيعة الخيال وما يصدر عنه من الانفعالات والأهواء